٧- عصر المرابطين

(٤٨٤ - ٥٤١هـ/ ١٠٩١ـ١١٤٦م)

اندفع أبناء الصحراء[١] نحو الأندلس فى تيار متدفق وأقبلوا بوجوه ملثَّمة كأنما أرادوا ستر جهلهم كما قال شاعر أندلسى[٢]، أقبل يوسف بن تاشفين المرابطى إلى الأندلس بِجماله معه، فرُعب منها الأندلسيون، إذ لم يكونوا قد رأوها قبل ذلك، جِمال فى إسبانيا! لقد تأفرق الأندلس، وأصبح ولاية تابعة للمغرب. وإذا كان قد أتيح له بذلك أن يقيم جبهته أمام النصارى ويثبِّتها، فقد اشترى ذلك بتضحية مُثله العليا جميعًا. وإنه لأمرٌ لا يخلو من مغزى بعيد أن الذين خربًوا مدينة الزهراء ـ والخلافة بَعدُ قائمة ـ كانوا من برابر المغرب.

كان يوسف ـ أمير المرابطين ـ لا يكاد يعرف العربية: حدث عندما جاز إلى الأندلس جوازه الأول مُعينًا لأمراء الطوائف أن أنشده نفر من الشعراء شيئًا من شعرهم، فقال له المعتمد: «أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟» قال: «لا أعلم، ولكنهم يطلبون الخبز!»[٣]، ولما انصرف المعتمد إلى حضرة مُلْكه، كتب له المعتمد رسالة فيها:

بِنتُمْ وبِنَّا، فَما ابتلَّتْ جَوانحُنَا ... شَوقًا إليكمْ ولاَ جفَّتْ مآقينا
حالتْ بِفقدكُمُ أيَّامُنَا فغدتْ ... سُودًا، وكانتْ بِكُمْ بِيضًا لَيَالينا

فلما قرئ عليه هذان البيتان قال للقارئ: «يطلبُ منا جوارى سوداً وبِيضاً؟»

---

(١) يشير بذلك إلى المرابطين.

(٢،٣) أبو الوليد الشقندى: «رسالة فى فضل الأندلس» فى نفح الطيب (طبعة أوربا) جـ ٢، ص ١٣٩.

قال: «يا مولانا، ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارًا لأن ليالى السرور بِيضٌ، فعاد نهارُه ببُعْدِه ليلاً، لأن أيام الحزن ليال سُودٌ» فقال: «والله جيِّد، اكتب له فى جوابه أن دموعنا تجرى عليه، ورءوسنا تُوَجِّعنا من بُعدِه»(١).

وبدا وكأن الشعر الأندلسى يلفظ آخر أنفاسه، كأن كيانه ناء بثقل النازلة، وانطوى على نفسه إلى حين، وانصرف نفر من أهل العناية والضبط إلى تخليد كنوز هذا الأدب الأندلسى وصيانة محصوله الزاخر من الضياع، ومن هنا كان هذا العصر عصر تصنيف مجموعات المختارات العظيمة «كالذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» لأبى الحسن على بن بسَّام الشنتريني (توفى ٥٤٢هـ / ١١٤٧م)، و«قلائد العقيان» لأبى نصر الفتح بن خاقان القلاعى (توفى ٥٢٩ أو ٥٣٥هـ / ١١٣٤ أو ١١٤٠م)، ولم يقتصر هذا الأخير فى كتابه على إيراد أشعار الجيل الذى سبقه مضمنة فى ثنايا تراجم شاعرية الصياغة مرسلة فى أسلوب مسجوع يُتيه الذهن فى متاهاته، بل أورد كذلك أشعارًا لمعاصريه نُظم الكثير منها «للقلائد» خاصة وأُهدى بعضها لابن خاقان نفسه، فسبق ابن خاقان بذلك المحدَثين فيما يطلبون من الدعاية لأنفسهم عن طريق تقارض الثناء.

بيد أن الشعر الأندلسى لم يمت فى عصر المرابطين، وكل ما حدث أنه كيَّف نفسه بما يلائم الظروف الجديدة التى أحاطت به. ولقد وجَّه «دوزى» كراهته المتأصلة فى نفسه لرجال الدين ـ أياً كانوا ـ نحو فقهاء عصر المرابطين، وأسرف فى تعرية الأفارقة من كل ثقافة، واعتبر هذا الجهل المِعْوَلَ الذى هدم صرح الحضارة الأندلسية. ولكننا رأينا أن ثقافة إمارات الطوائف لم تكن من نسيج متين قادر على البقاء. ثم إن كل ما هو إنسانى مصيره إلى زوال، وعلاوة على ذلك كانت سيادة المرابطين على الأندلس قصيرة العمر ـ نصف قرن أو نحوه ـ فلم يتهيأ لها الاستقرار فى الأندلس بصورة نهائية، ولم يقدَّر لها كذلك من فسحة الزمن ما يهذب من خشونتها، إذ كانت أشبه بثمر الحنظل. وكان المشرق إلى ذلك فى انهيار متصل، ولم يعد له على الأندلس إلا ظل خفيف من سلطانه

(١) نفس المصدر السابق والصفحة. والبيتان المذكوران من نونية ابن زيدون المعروفة.

الثقافى الأول، بل حدث عكس ما رأيناه قبلاً من وفود المشارقة على الأندلس حاملين إليه ذخائر العلم والحضارة، واتجهت الآن موجة الهجرة من الأندلس إلى المشرق، وحملت موجات الهجرة معها إلى مصر والشام أعلاماً أندلسيين ذوى خطر (من أمثال أبى الصلت أمية بن عبد العزيز الدانى وأبى بكر الطرطوشى). ولم يكن للشعر الأندلسى محيص عن أن يضمحل ويعيش على ماضيه. بيد أنه من الإنصاف أن نقرر أن خلفاء يوسف بن تاشفين لم يلبثوا أن استسلموا لسلطان الثقافة الأندلسية القاهر، وأصبحوا أقرب إلى الأندلسيين منهم إلى الأفارقة، فحفلت دواوين إنشائهم بالناثرين والكتَّاب ممن تخلَّفوا عن عصر الطوائف، ودخل فى خدمة المرابطين منهم نفر كبنى القبطورنه وأبى عبد المجيد محمد بن عبدون (توفى ٥٢٩هـ / ١١٣٤م)، الذين أكثروا من الشعر فى رثاء مجد بنى الأفطس أصحاب بطليوس الذاهب، ومن أشهر ما قيل فى هذا المعنى رائية ابن عبدون الذائعة الصيت، وإننا لنجد بين المتولِّين لأعمال المرابطين نفرًا من أعلام الأندلسيين فى ذلك العصر كأبى بكر الصيرفى (توفى ٥٧٠هـ / ١١٧٤م) وابن عبد الغفور وابن الإمام وابن عائشة وابن أبى الخصال (المتوفى عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م)، وغيرهم كثيرين.

ونذكر من بين شعراء أهل نواحى الأندلس، ممن كانت لهم علاقات وثيقة بعمال النواحى ـ إلى جانب صِلاتهم بالإدارة المركزية ـ أبا إسحاق بن خفاجة (٤٥٠ ـ ٥٣٣هـ / ـ ١٠٥٨ - ١١٣٨م) وابن أخته: على بن عطية بن الزقاق (توفى ٥٢٩هـ / ١١٣٤م) وكانا من أهل «جزيرة شُقْر»، وكانت لهما أسباب موصولة بالجيل الذى تقدَّمهما، فأما أولهما فمن فحول شعراء الإسبان[1]، وقد طار صيته بما أنشأ من الشعر فى وصف الحدائق والرياض حتى لقد لُقِّبَ «بالجَنَّان»، وهو فن من الشعر جَوَّدَهُ «المحدَثون» من شعراء المشرق وبرع فيه الصنوبرى؛ وإن روضيات ابن خفاجة لتفيض عذوبة وجمالاً، وإنه ليصوِّرها فى فن مصقول حافل بالمعانى، فتبدو وكأنها مشاهد من عالم الخيال أو مجالس أُنس

(١) يريد هنا أن ابن خفاجة يعد من فحول شعراء إسبانيا عامة.

obeikandi.com

تدور فيها الأكواب، بيد أنه من المبالغة أن نذهب إلى أن روضياته كانت السابقة التى نشأ عنها أسلوبنا فى فهم الطبيعة. وقد كان أثر ابن خفاجة عظيماً، وظلت «الطريقة الخفاجية» محتذاة حتى أواخر أيام مملكة غرناطة. أما ابن الزقاق فيرجع سر براعته إلى الصور التى ابتدعها لصياغة التشبيهات القديمة - التى ملّها الناس لكثرة استعمالها - فى قوالب جديدة، فتبدو وكأنها شىء جديد، وفى ذلك يقول الشقندى مخاطبًا أبا يحيى بن المعلم الطنجى: «وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجّوا من سماع تشبيه الثغر بالأقاحي وتشبيه الزهر بالنجوم وتشبيه الخدود بالشقائق، فتلطّف لذلك فى أن يأتى به فى منزع يصيِّر خَلَقَه فى الأسماع جديداً وكليلَه فى الأفكار حديداً، فأغرب أحسنَ إغراب، وأعرب عن فهمه بحسن تخيُّله أنبلَ إعراب، وهو ابن الزقاق:

وأغْيَدَ طافَ بالكئوسِ ضُحًى ... وحثَّها والصَّباحُ قَدْ وَضَحَا
والرَّوضُ أهْدَى لَنا شقَائقَهُ ... وآسُهُ العنبرىُّ قَدْ نَفَحَا
قلنا: وأينَ الأقاحِ؟ قالَ لَنا: ... أودعتُهُ ثغرَ مَنْ سقَى القَدَحَا
فظلَّ سَاقى المُدَامِ يجحدُ ما ... قالَ، فَلمَّا تَبَسَّمَ افتضحَا

وقال:

أديراها علَى الرَّوضِ المُنَدَّى ... وحُكْمُ الصُّبحِ فى الظلماءِ مَاضِ
وكأسُ الرَّاحِ تنظرُ عَنْ حَبابٍ ... يَنُوبُ لَنا عَنِ الحَدَقِ المراضِ
ومَا غَرُبَتْ نجومُ الأُفْقِ، لكنْ ... نُقِلْنَ مِنَ السَّماءِ إلى الرِّياضِ (١)

وكلا الرجلين - ابن خفاجة وابن الزقاق - يُعتبران الذروة العليا للشعر العربى القديم المحدَث فى الأندلس، ولا نجد بعدهما إلا تكراراً وانحداراً، مثلهما فى ذلك مثل جُنْجُرَه فى الشعر الإسبانى.

---

(١) أبو الوليد الشقندى: «رسالة فى فضل الأندلس» فى «نفح الطيب» جـ٢، ص ١٣٥. وقد اكتفى غومس بطرف من هذا النص، واستغنى عن الشعر، فأتيت به على تواليه.

واجتهد نفر آخر من الشعراء ـ على عكس ذلك ـ فى أن يتشبثوا بأذيال الزمن المُوَلّى ليمدوا فى أجله على غير جدوى، فمضوا يتنقلون من حلقة لأخرى، محاولين التكسُّب بشعرهم واسترجاع أيام الصِّلات السنية التى ولَّتْ مع أمسِ الدابر فلم يُغْنِ عنهم ذلك شيئًا، وانقلبوا بحسرات وخيبة آمال عبَّروا عنها فى أبيات مجهَدَة تنم عن حزن بالغ عميق، ونذكر من بين هؤلاء الأعمى التطيلى (توفى ٥٢٠هـ / ١١٢٦م)، وابن بَقى (توفى ٥٤٠هـ / ١١٤٥م). وقد خلَّف لنا هذا الأخير طائفة من أبدع أبيات النسيب، كقوله:

عَاطَيْتُهُ والليـــلُ يسحبُ ذيلَهُ ... صَهْبَاءَ كالمسْك الفتيق لناشقِ
وضَممتُهُ ضَمَّ الكمىُّ لسيفه ... وذؤابتاهُ حمائلٌ فى عَاتقى
حتَّى إذا مالتْ به سِنَةُ الكَرَى ... زَحزحتُهُ شيئًا، وكانَ مُعَانقى
بَاعدتُهُ عَنْ أضلعٍ تشتاقهُ ... كى لا ينامَ على وسادٍ خَافقِ[(١)]

وخلَّف لنا كذلك طائفة من المدائح البارعة صَوَّر لنا فيها حاله أدق تصوير وأحسنه، وكان يحلم بمجد يدركه بين أعراب الصحراء ويقول:

ولِىْ هِممٌ ستقذفُ بِى بلادًا ... نَأَتْ، إمَّـا العـراقَ أو الشآمَا
وألحــقُ بالأعـــاريبِ اعتـلاءً ... بِهمْ، وأجيدُ مَدْحَهُمُ اهتمامَا
لِكَيْمَا تحملُ الرُّكبانُ شِعرى ... بِوَادى الطَّلحِ أو وَادى الخزامَى[(٢)]

ولكن اليأس لا يلبث أن يغلبه على أمره، وينفد صبره ويقول شاكيًا:

إلى اللهِ أشْكُوها نَوًى أجنبيةٌ ... لَهامِنْ أبيها الدَّهرِ شيمَةُ ظالم

---

(١) المقرى: «نفح الطيب»، جـ ٢، ص ١٣٥.
ولم يورد المؤلف الأبيات فى سياق كلامه، وإنما أشار إلى رقمها (٥٩) بين المختارات التى أوردها فيما بعد.

(٢) ابن خاقان: «قلائد العقيان»، ص ٣٢٥ المقطوعة الأخيرة، ولم يترجم المؤلف فى نصه إلا البيت الأخير.

إذا جاشَ صدرُ الدَّهْرِ بِى كنتُ مُنجدًا … وإنْ لم يَجشْ بِى كنتُ بينَ التهائمِ

أكُلٌّ بنى الآدابِ مِثلى ضائعٌ؟ … فأجعلَ ظُلْمى أسوةً فى المظالمِ

سَتبكى قوافى الشعرِ ملءَ جُفونها … على عربىٍّ ضاعَ بينَ أعاجمِ (١)

وهؤلاء الشعراء المحدَثون أنفسهم ـ الذين ما كانوا لينظموا أزجالاً وموشحات فى المناسبات الحافلة لو أنهم عاشوا فى زمان آخر ـ وجدوا أنفسهم الآن مضطرين إلى استعمالها، ذلك أنه ظهر فى أوساط معينة خلال ذلك العصر المرابطى ـ الذى هبط الذوق فيه هبوطًا بالغًا ـ الميلُ إلى كل ما هو شعبى سوقى خالٍ من الحشمة والتوقر، وقد كانت هذه النزعة أشبه بثورة على القوالب المتكلِّفة التى كان الأرستقراطيون المتزمتون يلتزمونها ويحرصون عليها، وكانت فى نفس الوقت دليلاً على غلبة ذوق العوام، ومن ثم كان هذا العصر عصر الهجاء اللاذع والسُّخر العنيف، عصر المتحررين والمُجَّان من الشعراء، وعصر كبار الزَّجَّالين كذلك. وقد عرف المحدَثون من شعراء بغداد، هذه النزعة أيضًا، وكما رأينا الصنوبرى يُبعث من جديد فى شعر ابن خفاجة، نجد تبذُّل ابن حجاج يتراءى لنا هنا وهناك فى النوادر والطُّرَف التى تحكى عن نزهون بنت القلاعى الشاعرة الغرناطية وأبى بكر الكُتَندى والأبيض وأبى بكر المخزومى الأعمى، ونراه بوجه خاص فيما يحكيه ابن قزمان وما يُحْكَى عنه، وديوان أزجال ابن قزمان(٢) يعتبر طرفة ممتعة، وجرأةً تجرح احتشام المتوقِّر ومعضلة يجتهد فى حلها علماء عصرنا. ولسنا ندرى على وجه التحقيق إن كانت هذه الأزجال قد أُنشئت لتُنْشَدَ على الناس فى صوت مسموع على قوارع الطرق، أو كُتبتْ ليتهاداها أهل الظرف والمتحررون فى مجالس أنسهم. ومهما يكن من الأمر فهى أشعار مفحشة عابثة مجردة عن الحياء، فيَّاضة بالمجون والتصغيرات، مرسلة فى غير تحفُّظ فى

---

(١) ابن خاقان: «قلائد العقيان»، ص ٣٢٣، المقطوعة الأولى، ولم يترجم غومس إلا البيت الأخير.

(٢) توفى سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م أو ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م. والأزجال موشحات تصاغ فى اللغة الدارجة، ولم نورد نماذج منها فى كتابنا هذا لبعدها عن الشعر الفصيح المعرب. المؤلف.

obeikandl.com

عبارات متقطعة غير متصلة المعانى أو السياق، وهى على كل حال إذا قورنت بأدب المجالس المهذبة المصقولة تجلت لنا حقيقتها: «صوت فى الطريق[1]» وهى أقرب بكثير إلى الروح الإنسانى من الشعر الفصيح المعقد الذى يبدو وكأنه معادلات جبرية.

* * *

(١) يشير المؤلف هنا إلى تسمية ابتكرها هو لابن قزمان وأزجاله، وقد كتب فى ذلك بحثا مشهوراً بين أيدى دارسى الأدب الأندلسى هو Aben Guzman, una voz en la calle نشره فى صحيفة Cruz y Raya (= «زائد وناقص» أو «له وعليه») عدد ٣، مدريد، مايو ١٩٣٣م، ص ٣١-٥٩ وأعاد نشرها فى كتابه: Cinco poetas musulmanes (Madrid 1944) pp. 142-166
والشعراء الخمسة الذين درسهم فى هذا الكتاب هم: المتنبى، وأبو مروان «الأمير الطليق»، وأبو إسحاق الإلبيرى، وابن قزمان، وابن زمرك.